الحجارة المؤلّهة

وعبادتها عند العرب الجاهليين

من آثار المرحوم الاب هنري لامنس

٥

درسنا في الابحاث السابقة بعض المظاهر لعبادة الحجارة بين العرب الجاهليين. وقادنا البحث الى ذكر شيء عن دور الطواف في شعائر الدين القديم. ثم حاولنا فهم لفظة «البيت» واتّباع تطوّرها اللغوي. ولا شك في ان هذه الابحاث تظلّ ناقصة، اذا اهملنا الاشارة، وان مختصرة، الى علاقة هذه المظاهر والشعائر الدينية بتكريم ذكرى الاجداد تكريماً دينياً في العصر الجاهلي.

ولا يخفى ان المكان الحافظ ذكرى الجد الفقيد، المتضمّن ترابه كان يطلق عليه في الزمن الغابر اسم «البيت». يشهد بذلك كثير من الشعر الجاهلي كقول زيد الخيل، شاعراً بدنوّ اجله، خائفاً من ان يُترك منفرداً في قبره في بلاد غربية:

أمرتحل صحبي المشارق غدوةً واترك في بيت بفردة منجدِ (١

وقول كبشة، اخت عمرو بن معدي كرب، معيّرةً اخاها عمراً لتركه ثار اخيه، تقوله على لسان القتيل:

ولا تأخذوا منهم اقالاً وأبكرًا واترك في بيت لسدة مظلمِ (٢

وقول لبيد:

وصاحب ملحوبٍ فُجعنا بيومه وعند الرداع بيت آخر كوثر (٣

---

١) الاغاني ١٦ : ٤٦

٢) الاغاني ١٤ : ٢٥

٣) لسان العرب ٢ : ٢١٦ ؛ قابل بما في البكري : معجم ما استعجم ٢٤٧ ؛ الاغاني ١٤ : ٨١ ، في قول طفيل الغنوي ؛ حماسة ابي تمام ١٠٧ ؛ حماسة البحتري ، عدد ١١٠ ؛ معجم ياقوت (طبعة مصر) ٥ : ٢٨٤ ؛ ابن الاثير : النهاية ١ : ١٠٢ ، ٤ : ٢١٢ . ويذكر دريد بن الصمّة «بنيان القبور» في الاغاني ٩ : ١٤ ، وفي الاغاني ١٤ : ١٣٠ ذكر لحجارة «بُنيت»

واقرب الينا رثاء جرير لامرأته :

لولا الحياء لعادني استبارُ ولزرت بيتكِ ، والحبيبُ يُزار [١]

في هذه القصيدة العاطفية يقترن الشعور الحقّ بالتعبير الطبيعي . وهما ميزتان نادرتان في تلك الكثرة من المراثي البدوية[٢] التي غالباً ما اتصفت بالتعابير المبتذلة ، والصور والتخيلات المراجَة[٣] . حتى بلغ الامر بالخنساء ومثيلاتها ان احتللنَ المركز الاول في هذا النوع ، من حيث الكمية . اما مراثي الرجال فهي اقلّ مراجعات ، واخفّ ابتذالاً .

وُجدت المرثاة لتمجيد ذكرى السادة الاشراف ، وتعداد مآثر الابطال ، فلم يكن لها ، والحالة هذه ، ان تبكي احدى اناث القبيلة . ولم يكن لحادث طفيف كموت امرأة أن يضعضع صبر البدوي المأثور . فاذا اظهر الرجل عاطفته لمثل هذا الحادث كان كمن خالف اصول اللياقة والاحتشام ، فحقّ لعائشة مثلاً ان تعاتب ذاك الأنصاري النادب شريكة حياته بقولها : « أتحزن على امرأة ؟ »[٤]

كان من حقّ النساء ان يصعّدن الزفرات على الرجل الراحل ، ولا سيما الام والاخت ، وهما اقرب نسباً اليه من امرأته التي قد تكون « نزيعة » او « سبيّة »

على قبر . وهي حجارة موقوفة او مصفوفة على شكل دائرة . وعلى هذا النحو كان المسجد الذي بناه ابو بكر للنبي في الطريق تحت شجرة مكرّمة ، كما في قول الواقدي : « قام الى حجار فبنى تحتها مسجداً » ، كتاب المغازي ١٩ . وراجع بحثنا في *Sanctuaires préislamites*, p. 58

١) البكري : الكتاب المذكور ٣٤٧ . وفي نقائض جرير والفرزدق أُبدلت « بالبيت » لفظة « قبر » ، وكذلك في معجم ياقوت (طبعة مصر) ٢ : ٣٨٤ . ولعلّ هذا الإبدال مقصود ، في سبيل الغاية التي سنشير اليها . وانظر كيف تعتذر عائشة عن زيارة قبر اخيها في الاغاني ١٤ : ٧٠ . وقابل ، بشأن الحياء ، بما في الاغاني ١٩ : ٨-١

٢) راجع كتابنا في *Fāṭima*, p. 120-121 ؛ واطلب ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٢٦٩ ، وقد اعجبت بهذه القصيدة فدحتها سُكينة ، حفيدة علي بن ابي طالب ، الاغاني ٧ : ٤٠ ، ١٧ : ١٧٧

٣) راجع ، في الحكم على هذه المراثي ، ما يُنسب الى عنترة ، في الاب شيخو : الشعراء النصرانية ٨٢١-٨٢٢

٤) ابن هشام : السيرة ٦٦٨ . وفي ابن سعد : الطبقات ٣ : ١٢ ، مثل آخر ، وراجع *Bercéau*, I, 106

من قبيلة اخرى . ولسنا نعرف في قديم الشعر مرثاة خطّها رجل بامرأته[١] . وقد غفل التقليد الشيعي عن هذه الظاهرة الاجتماعية ، عندما شاء ان يخرج علياً من صبره الصامت لدى وفاة فاطمة[٢] ، فنسب اليه قطعة من الشعر الرثائي[٣] .

ولا شكّ في ان الإسلام أضعف من اهمية المرأة في الحياة الاجتماعية . ولكن هذا لا يخفّف من حيرتنا اذا ما فتشنا عن اسباب تخوّف جرير الحزين ، وجهوده في تسكين ما قد تثيره من الاستغراب مرثاته الجريئة . حتى ان التقليد الادبي ، الذي كثيراً ما ظهر ميّالاً الى جرير بل متعصباً له[٤] ، لا يتكلّف تبرير موقف الشاعر المفجوع . وها ان الفرزدق[٥] ، خصمه الوقح ، يتطاول بفظاظة على الهزء بألم زميله ، دون ان يثير اي احتجاج . بل ان جريراً نفسه نراه يتردّد في انشاد قصيدته العاطفية في حلقات المدينة[٦] ، مثقل السنّة المحافظة على الايمان الخالص . ونحن نعرف ان الإسلام أظهر دائماً اعراضه التام عن تكريم القبور[٧] . لانه كان يشمّ فيه خطراً على خلوص التوحيد . حتى ان ارباب «الصحيح» وجُمّاع «السُنن» اذا ما ارادوا تبرير زيارة القبور ، احتاجوا الى التسلّح باذن خاص من النبي ، يظهر منه انه تراجع ، آسفاً ، عن تحريم سابق[٨] . وقد يشعر الباحث بهذا

---

١) ولا نرى من هذا الشعر الّا في العصر الاموي كمرثاة الوليد الثاني لامرأته ، الاغاني ٦ : ١٢٢ ؛ وفي الاغاني ١٩ : ١٠٨ مثل آخر من العصر الاموي ، ولكن الشاعر يخاف العار والحياء. فيقول : « لولا الحياء ولولا رهبة العار . » وراجع « معارف » ابن قتيبة (طبعة مصر) ٦٣

٢) اطلب *Fâtima*, 116

٣) العقد ٢ : ٧٠ — واكثر من هذه تلك المراثي المخصوصة بالجواري . اطلب الاغاني ١٢ : ١١٥ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ؛ الجاحظ : الحيوان ٦ : ١٧٢ ؛ وخصوصاً العقد ٣ : ٢٢ . يد ان فيه ، ص ٢٤ ، مقطعاً قصيراً يخصّه احد البدو بزوجته .

٤) راجع كتابنا في *Chantre*, ؛ الاغاني ٧ : ٢٨ ؛ ١٩ : ٤٨

٥) وهو يرفض زيارة قبر امرأته ، الاغاني ١٩ : ١١

٦) الاغاني ٧ : ٦٦

٧) قابل بتشديد النبي على فاطمة ، وقد لعنها زائرة احد القبور ، ابو داود : السُنن ٢ : ٢٤

٨) اطلب *Fâtima*, 118 ؛ البتوي : مصابيح السُنّة ١ : ٧٤-٧٥ ؛ السيوطي : موضوعات ٢ : ٢٢٤ ؛ ياقوت : المعجم (طبعة مصر) ١ : ٩٢ ؛ ابو داود : السُنن ٢ : ٤٤ ، ٢ : ٣٠٢-٣٠٣ ؛

الاختلاف في الآراء بشأن القبور اذا ما زار المقابر الاسلامية القديمة ، فشاهد تلك الصفوف من القبور المتماثلة ، وميزاتها المساواة المطلقة ، والرمي الى إغفال أعلامها[1] . هي روح السُنة اذ تشجب القبور « المسنمة » وتنهي عن البناء فوق القبور حتى لا تُحوّل الى مساجد كما يفعل اصحاب الكتاب[2] . بل انها تنهي ان تُطلى القبور بالكلس الأبيض ، وان تنقش عليها الرقم او الكتابات[3] .

ولم تكن لفظة «البيت» الدالة على القبر في اللغة القديمة ، تلك اللغة الأثيرة لدى شعراء الامويين ، الّا لتنبه ارباب السُنة فتثير حذرهم وتخوّفهم . نتحقق ذلك في ما نراه من اختلاف الروايات في بيت جرير المذكور ، ومن محاولات ابدال « القبة » « بالبيت » في بعض النصوص القديمة . وقد ذكر غولدسيهر « بيتاً » اقامه الطائيون على قبر السيد قيس الداري[4] بعد ان قتلوه فندموا ، وزاد محذّرًا قرّاءه من ان يفهموا التعبير فهماً ظاهرياً[5] . بيد ان هذا التحذير ، على فائدته ، كان من الممكن ان يُستغنى عنه ، لو دقّق المستشرق في ترجمة لفظة « بيت » .[6]

ويُذكر عن النبي انه زار قبر امه : مسلم : الصحيح ١ : ٢٥٩-٢٦٠ ؛ ابن دُبَيْع : تيسير الوصول ٣ : ٢٠٤-٢٠٥

١) فهي كما رآها دُرون :

Elles sont, ça et là, modestes et sans ombre,
Toutes semblables pour des êtres différents...
Tous ont déposé là l'angoisse d'être un homme,
Tels les chameaux meurtris par les sangles, le soir
S'agenouillent enfin pour commencer leur somme,
Les naseaux rafraîchis à l'eau de l'abreuvoir.

Alf. Droin, *Chant du Maghrib.*

٢) راجع صحيح مسلم ١ : ٣٥٧ ؛ ابو داود : السُنن ٢ : ٤٣ ؛ *Fâtima loc. cit.* ، قابل بما في اسد الغابة ٥ : ١٥٠ من انه اقيم مسجد على قبر صحابي ترفي في توجهه الى النبي !

٣) الذهبي : الميزان ٣ : ٢٨٤

٤) قابل بما في الاغاني ١٦ : ٨١ : ٥ بنوا عليه بيتاً ٥ ؛ ١٣ : ١٤٤ ، اي اثرًا من الحجارة المتراكمة او المستديرة على شكل حظيرة .

٥) Goldziher, *Muh. Stud.*, I, 233

٦) وهو يترجمها بلفظة *Haus* وكذلك يترجمها ولهوسن ... *Reste*, 58, 194

اذاً لما شكونا نتائج هذا الالتباس.

ذلك اننا نجهل الكثير من شؤون العصر الجاهلي وآثاره. وليست كتب اللغة التي بين يدينا كالتاج، واللسان، او كتب الادب كالعقد وامثاله، لتسدّ هذه الثُلم الواهية في المعلومات عن ذاك العهد السحيق، ولا سيما في هذه النقطة الخاصة. ولهذا نرانا مضطرين الى المقابلات والاستنتاجات. ونحن، وان كنا لا نتصوّر بسهولة ما يمثله ذاك «البيت» المقام على القبر؛ فان القدماء من العرب كانوا اذا ما رأوا «البيت» — وهو لا يعدو ان يكون حجراً مرفوعاً، او نصباً، او شاهداً، او «قبة»، وهي من مرادفات «البيت»، قائمة في دائرة من الحجارة او «حرم»[1] — تمثّل لهم فيه معنًى دينيّ يتعلّق بتكريم الموتى. ومن هذا النوع كان النَّريان في ظاهر الحيرة، وهما بعيدا الذكر في تاريخ اللخميّين. وكل قبر معروف مشهور، على هذا الشكل، كان يُصبح «حرماً»[2] وبالتالي مذبحاً او مكاناً للتضحية. ولهذا يسمّى نصبه او شاهده «النَّريّ»، او «المنري» اشارةً الى تلطيخه بالدم، دم الذبائح او الاضاحي. ومن النوع نفسه كانت تلك «الإرَم»[3] والحجارة المرتبة مستديرةً على قبر معاوية، اخي الخنساء، تعلوها اغصان السَّلَم السُّمر:

الى إرَمٍ واحجار وصبر واغصانٍ من السلمات سمرِ[4]

وكثيراً ما كانت هذه الإرَم تجاور «الأنصاب» التي لم يبقَ شكٌّ في الغاية من رفعها. وقد رأينا الشعراء يميلون الى القَسَم بها، واعلان صفتها المقدّسة، وذكر دماء الضحايا المهراقة عليها[5]، في أيمان لا تقلّ في نظرهم عن الأيمان باقدس

---

١) راجع حديثا ظاهر الغموض والالتباس في الكلام على قبر ابي رغال، ابو داود: السُّنن ٢: ٢١؛ وفي الاغاني ٤: ٧٦ نصّ اوفر تحريفاً. وليُقرأ «كان في الحرم» بدل «هذا الحرم»

٢) راجع *Fatima*, 119

٣) اطلب، في معنى «إرَم»، ابن دريد: الاشتقاق ١٩٤

٤) تاريخ ابن عساكر (طبعة بدران) ٥: ١٨٣؛ راجع الاغاني ٩: ١٤، ١٣: ١٤٤؛ شيخو: شعراء النصرانية ٧٧٠

٥) الاغاني ٩: ٦؛ ياقوت: المعجم (Wüstenfeld) ٤: ٩٩٦، وقابل بما في ابن هشام: السيرة ٦٢٦؛ ١٤: ١٣١

المياكل.

وهم يتكلمون عن الميت احياناً كما لو كان لا يزال في قيد الحياة يلجأون اليه ، ويعوذون بقبره او « بيته » او « قبّته » كما في قول الشاعر:

أتيت مُليحاً فعذت بقبره واخر الزمانة عائذٌ بالأنمر(١

يتضح من كل هذا ان ارباب السُنة كانوا على حقّ في حذرهم من هذه البقايا الجاهلية . ومنها تلك « القُبّة »(٢ التي كانت تُنصب على قبر الجدّ ، او الميت السيّد المشهور ، فتختصّ هي وما يحيط بها من الارض بحقّ الحَرَم ، او الملاذ والملجأ . وليست هذه الصفة ، في الحقيقة ، الّا امتداداً ، حتى ما وراء القبر ، للمنعة او الحِمى الذي كانت تختصّ به « قبة » القبيلة وفنازها ، بل انها توسّع في معنى « البيت » بدلالتيه الدينية والمدنية . وكما كان اللاجئ الى صاحب « القبة » في حياته يُدعى « جاره » ، كذلك اللاجئ الى القبر او العائذ بالقبة المنصوبة عليه يُسمّى باسم « الجار »(٣ فتؤمّنه وتحميه شريعة الضيافة المنيعة - هو ضيف الميت يقوم بحقّه ابناؤه الساهرون على القبر كعديّ بن حاتم يستقبل الاضياف على قبر والده في الجاهلية(٤ ، وكالفرزدق الشاعر يفعل الفعل نفسه في الإسلام(٥ . وهكذا زى قبر السيد الفقيد يكوّن حِمىً او حَرَماً يحافظ عليه اولاده وحفدته ، حتى اذا طال الزمن ، ومرّت الاعوام بوقار التاريخ ، تحوّل القبر شيئاً فشيئاً الى مقرّ للعبادة التقليدية .

ولنا في تاريخ الخليفة هشام بن عبد الملك(٦ ما يؤيد هذه العادة.

كان الخليفة قد غضب على الشاعر الشيعي الكميت بن زيد ، فنذر دمه ،

---

١) ابن دريد : الاشتقاق ٢٢

٢) ولتشبه لاسم « القُبّة » ، فهي ليست خباء او بيتاً من شعر ؛ اطلب شيخو : شعراء النصرانية ١٧٥ ، وقابل بما في الاغاني ١١ : ١٤٤ ؛ الطبري : تاريخه ٢ : ١١٠٧ ؛ البخاري : الصحيح (القسطنطينية) ٣ : ٩٠ ؛ ابن حنبل : المسند ٣ : ٢٩٣

٣) راجع الاغاني ١٥ : ١٢١ ؛ ابو زيد : النوادر (طبعة بيروت) ١٦١ ؛ الاغاني ١٣ : ١٠٠ ، ١٩ : ٢٦ ، ٤٣ ، ٥٠ ؛ ابن عساكر : تاريخه ٥ : ٢٦٩ ٤) الجاحظ : المحاسن ٨٢

٥) ابن دريد : الكتاب المذكور ١٤٧ ، واطلب ترجمة الفرزدق في الاغاني.

٦) الاغاني ١٥ : ١١٥-١١٦

وجعل لمن يأتي برأسه جُعالة. فاحتال الشاعر حتى وصل الى قبر معاوية ابن الخليفة، فلاذ به ونصب عليه « قُبَّة » ، معتبرًا قبر الامير الشاب اعتبارَه قبرَ بطل شهير او جدّ معروف. فنال بفضل هذه المظاهرة المريبة ، رضى الخليفة وامانه . وان كان لنا ما نستخلص من هذا الحادث فهو اثر « الدين » العربي الجاهلي العميق ، الذي كان لا يزال متسلطاً على نفوس المسلمين ، وقد مرّ على الإسلام ثلاثة ارباع القرن !

وكان من القبور ما يظهر اجدر من غيره باسم « البيت » ؛ كقبر حاتم طي، وقبر عامر بن الطفيل[1] ، وقد أُحيط كلّ منها بدائرة من الحجارة المركزة او الأنصاب ، مشيرةً الى المارّة بصفة القبر المنيعة ، صفة الحِمى او الحَرَم.

وقد تقدّم لنا القول انهم كانوا يضحّون بالذبائح على اكثر هذه الأنصاب القبرية ، تضحية التكريم والإجلال[2]. ولم يكن احد ، في القرن الاول للهجرة ، ليجهل هذه الشعائر والعادات الطقسية . فلا عجب ان تكون اثارت احتجاج السُنَّة ، فاندفعت الى تحريمها بحدّة وصرامة شاملةً بتناهيها القاسية الذبائح على القبور[3] ، ونصب الفسطاط[4] في اثناء الجنازة وبعدها .

* * *

ولنذكر الآن قبر ابي رغال ، وما احاط به من احاديث:

معروفٌ ان قبيلة ثقيف ابعدُ القبائل الحجازية همّةً واشهرها مساعيَ بعد قبيلة قريش . فلم تكن لتنحرف عن تكريم ذكرى جدّها الاعلى ، واحترام مركز قبره ، وقد اصبح « القبرَ » على الاطلاق[5] . ولكنّ الحزب المعارض

١) اطلب ديوانه (طبعة Lyall) ص ٩١

٢) حتى ان المارّ نفسه يعقر راحلته كما سنرى.

٣) ابو داود: السنن ٢ : ٤٣

٤) البلاذري : الانساب ٢٨٢ b ، طبعة Ahlw ٤٠ ؛ السهودي : الوفاء ٢ : ١٠٠ ؛ ابن الديبع : ك . م . ٣ : ٣٩٦ ؛ البخاري : الصحيح ٢ : ٦٨ ؛ ابن حنبل : المسند ٢ : ٢٦٢ ؛ مطهّر المقدسي (Huart) ٥ : ١٠٥ – وقد يحتجّ بعضهم لنصب الفسطاط برداءة الطقس من شدّة حرّ او انهمار مطر . . .

٥) قد يكون هذا معنى القول : « والقبرُ قبرُ ابي رغال » الاغاني ١٥ : ١٣١

للامويين، المتغلغل تأثيره حتى الشؤون التاريخية واللغوية، تظاهر بجهله معنى الاسم « عبد ثقيف »، مستندًا الى إعراض النسابة المسلمين وارباب الحديث عن ذكر كلّ معنى ديني لتلك الاسماء الجاهلية المبذولة « بعبد »، مع قولهم ان النبيّ كان يكرهها ويسرع بوضع غيرها لتابعي دينه.

على اننا نميل اليوم الى القول ان « عبد ثقيف » يدلّ الدلالة الواضحة على عبادة عريقة او تكريم ديني لثقيف[1]. وثقيف، وابو رغال، وثقي، في نظر النسابة، ثلاثة اسماء لمسمًى واحد هو جدّ بني ثقيف، واذًا فبدل ان نرى في هذا الاسم دلالةً على مهانة الثقفيين — تلك التي شاء ان يلصقها بهم بعضُ جمّاع الاخبار القديمة من الذين كانوا يكتبون، عن جهل وسوء نيّة، في سبيل التزلّف للعلويين او العبّاسيين، فيتعمّدون إساءة بني امية بتذليل قبيلة اشهر ولاتهم — نرى فيه بيّنة ظاهرة على دين ثقيف القديم، لا تقل في شيء عن دلالة « عبد قُصي » على مظاهر التكريم الديني الذي كان يوليه قدماء القرشيين لجدّ سراتهم، وواضع شريعتهم المكيّة، كما يزعمون.

ولا نبالغ اذا قلنا ان بغض الشيعة والعباسيين لبني امية[2]، وولاتهم المخلصين كزياد بن ابيه[3]، وعُبيدالله، والحجّاج، دفع الرواة وجمّاع الاخبار الى استغلال اسطورة ابي رغال على اقبح شكل واسجه، يرمون في ذلك الى النيل من الثقفيين خاصّة، واهل الطائف اجمالًا. ولم تغلّ الشيعة، ذاكرةً حادثة كربلاء وعدد ضحاياها، عن دُعاة الهاشميّين المأجورين[4]، في تسويد ماضي الثقفيين، وقد نجحت هذه الخطة بفضل اجماع الفئتين.

على ان هذه الاحقاد السياسية التي بلغت اقصاها بعد سقوط الدولة المروانيين، لم تستقلّ في التحامل على قبر ابي رغال. وقد لا نخطئ اذا اشرنا الى اشتراك ممثلي التوحيد القرآني في العمل على الحطّ من هذا المظهر لعبادة جاهلية قديمة في

---

١) راجع كتابنا في *Ṭāif*, pp. 34,57,66,67

٢) ولا سيما يزيد المدعوّ « أشقى الاشقياء »، مطهّر المقدسي (Huart) ٥: ١١٧

٣) راجع بحثنا في *Yaqūt*, p. 124

٤) اطلب *Ṭāif*, p. 173

تكريم الاجداد. ولا يصعب على الباحث ان يدلّ على محاولات التوحيد في هذا الموضوع ، محاولات لم تستتر بمهارة كافية . وليس من عجب في ان يقوم ارباب السنة لمحاربة هذه البقايا ، وقد رأوا في المظاهر المختلفة لتكريم الموتى ، في هذه الآثار البسيطة الدالة على مواقع قبور الاجداد ، فعلى اهداف عبادة الحفدة ، من اعمدة مركوزة ، او صفائح مرتّبة ، او رُجم[1] مركومة ، من « بيوت او انصاب » ، كما كان يقال في لغة الشرك القديم ، خطرًا على سلامة العقيدة التوحيدية ، ومهدّدًا لمستقبل السنة الخالصة. فكان ان استعملوا ، في هذه الناية ، المخاصمات السياسية ، والمنافسات بين القبائل . وهكذا استعانوا بعصبيّة الأسر الارستقراطية في مكة ، حتى حوّلوا قبر الجدّ قُصيّ[2] الذي كان مقرًا للعبادة ، الى ما دعوه « بدار النَدوة » رامين الى اقرار مؤسّسة تجعل حقوق الهاشميين وراثيةً كابرًا عن كابر . فنجحوا كل النجاح بأن صرفوا الانتباه عن صفة القبر الدينية في العبادة الاصلية ، الى تمجيد الخلافة الهاشمية ، والتكثير من عدد المأخوذين بهذا السراب .

ولكنهم لم يأخذوا بالاحتياط نفسه، في ما خصّ الطائف، منافسة مكة في العهد القديم ، ومحالفة الامويين ، وبالتالي موضوع سخط العبّاسيين وهدف حقدهم الجامح.

وكان من همّ القائمين بهذه الحملة ، من مُلهمين ومنفّذين ، ان يحطّوا ، قبل كل شيء ، من شأن المعابد الجاهلية ، معاقل الشرك القديم . ولا بأس ان يستنجدوا بالمتخيّلات والاساطير . حتى اذا كثرت المعلومات المنحولة ، المتقاطعة المتضببة عن قصد وتصميم ، كان منها ما يُحرّف ويُبدّل في معنى الشعائر المُقامة على قبر ابي رغال جدّ الثقفيين ، حتى تخرجها من صفة التكريم الى مجال الازدراء. وانتهاك الحرمة. من ذلك انهم يصوّرون النبي، في سيره الى حصار الطائف، يقف على قبر ابي رغال ليبينه. ويقولون: « استُخرج منه غصن من ذهب »[3]. وهو قول

١) الاغاني ١٦ : ١٤٢ . وليقرأ في السطر الثامن قبل الاخير « رُجَبي » لا « رحمي ».

٢) راجع كتابنا *La Mecque*, pp. 101, 226, 301 — إلّا اذا كان مقرّ هذا القبر الاصلي على مرتفع قرب مكة ، كان يُرجم بالحجارة ، وقد عدّته بعضهم مركزًا لقبر ابي لهب .

٣) عُجيمي: اخبار الطائف (مخطوطة المكتبة الملكية في القاهرة) ص ١١ قفا . ويقول ابو داود: السُنن ٢ : ٢٢١: « دُفن معه غصن ذهب » ، راجع الذهبي: الميزان ١ : ١٢٨

ضعيف وصل بطريق مورد غير صافٍ . وكأنه تحريف لقول قديم لمّا لاصله اثرًا في ما نقل الاغاني[1] عن « عمودٍ من ذهب » (؟)

ولا يخفى ان غاية الإسلام كانت أن يستبدل بالمجتمع الجاهلي القديم المؤلف من وحدات قبلية امّةً واحدة هي « أمة محمد »[2]. فكان ان المسلمين اخذوا بهذه النظرة الجديدة ، ولم يقلعوا عن عقليتهم العريقة ، فتوصلوا الى القَسَم بقبر محمد[3] منزلينه منزلة قبور جدودهم المكرّمة ، دالّين على رغبة السامعين اجمالًا في تعداد الأيمان ، جارين في هذا على مثال القرآن ، وقد كثرت فيه الاقسام ولا سيما في مطالع السور المدنية.[4] وقد رأينا في بعض الأيمان القديمة الحلف بقبر ابي رغال. ولعلّ ذلك كان جارياً مجرى العادة في الحجاز. يؤيّده ما نقله الاغاني[5] عن اشعب في حادثة يجمع فيها بين اليمين بقبر جدّ الثقفيين واغلظ الأيمان التي اعتاد البدو الحلف بها.. وقد يكون من غاية التقليد ان يُزري بهذه الأيمان القديمة ، المتنافرة والدين الجديد ، فوضعها على شفتي أشعب ، ذاك المهرّج الظريف الذي كان يُضحك مأجورًا علية المجتمع الارستوقراطي العابث في المدينة ، اواخرَ القرن الاول للهجرة.[6] ولا مرمى للاعتراض بضآلة الشخص المعدّد هذه الأيمان او بسيرته الماجنة. اما اذا كانت هذه الأيمان نادرة في ذلك المجتمع ، فما معنى تحريم السنة للحلف بالآباء والجدود ![7]

* * *

١) الاغاني ٦ : ٧٦

٢) « الاسلام لا يرضى عن التعبير العريق البداوة « دين محمد » ، والقرآن لا يعرف الا « دين الله » . الاغاني ١٦ : ٦٦ ، وقابل بما في ابن هشام ٧١٢ : « ملة الله ».

٣) الاغاني ٦ : ٩١ ، ١٦ : ٩٣ ؛ ديوان حسّان بن ثابت ٣٠ : ١ ، وهو اقدم نصّ يُذكر فيه قبر محمد.

٤) انظر مطالع السور ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٠

٥) الاغاني ١٥ : ١٢١-١٢٢

٦) اطلب ترجمة أشعب في الذهبي : الميزان ١ : ١٢٠-١٢١ ، ويلاحظ المؤلف قائلًا : « لا يُكتب حديثه ! »

٧) الترمذي : الصحيح (طبعة الهند) ١ : ١٨٥ ؛ البغوي : الكتاب المذكور ٢ : ٢٢ ؛

يقول ولهوسن[1]: «ان رمي الحجارة على القبر، في الإسلام، يعني احتقارَ الميت. امـا في الزمن القديم فان هذا العمل كان يعبّر عن احترام الرامي.»[2] ولنضف: وكذلك وضع اغصان الشجر على القبر، كما يشهد دريد بن الصمة ذاكرًا[3] اغصانًا «من السلمات السمر» في بيته المذكور في اول هذا البحث، والذي شرحه صاحب الاغاني بقوله: «اي أُلقيت على قبره.»[4] وتذكر مجاميع «الصحيح» ان محمدًا احتفظ بهذه العادة القديمة، فرآه الناس يغرس الاغصان الخضراء على القبور في المدينة. على ان ارباب هذه المجاميع القانونية يجتهدون في إلحاق هذه الظاهرة بنظرية «عذاب القبر»[5]، متكلفين في ذلك مشقة لا تخفى. وهذا لبيد الشاعر المخضرم يوصي بان يُطرح على قبره الحشب واغصان الشجر[6]. وصية تظهر على عكس مـا تُختم به اوراق النعيّ اليوم: لا زهور، لا أكاليل. ولكن الفكرة الملهمة تظلّ ذاتها وهي فكرة تكريم الموتى.

وإلى مَن كان يتّجه فكر مشركي الجاهلية في ترتيبهم الحجارة. وهي من تلك الشعائر الطقسية القديمة التي احتفظ بها الإسلام في شعائر الحجّ؟.

من الصعب ان نجيب عن هذا السؤال فنعيّن بدقة الى مَن كانت تُوجّه تلك الحجارة؟ ولكن مما لا نشك فيه انها لم تكن تستهدف الشيطان، كما شرح التقليد الرسمي منذئذ. قد يظلّ معنى هذه الظاهرة الدينية غامضاً. على اننا لا نخطئ اذا قرنّا بها عادة الجاهليين في رمي الحجارة على قبور موتاهم؛ فنسبناها الى فكرة دينية واحدة. ولم يكن قبر ابي رغال، وارض مِنى،

الاغاني ٨: ١٩٣، وفيه يمين بشأن؛ ابو داود: السُنن ٢: ٤٥؛ مسلم: الصحيح ٢: ١٨-١٩؛ اسد الغابة ٥: ١١٤؛ النسائي: السنن ٢: ١٢١؛ البخاري: الصحيح ٧: ٢٢١-٢٢٢

١) Wellhausen, *Reste*, 112

٢) قابل بما في الاغاني ١٨: ١٨٤: «يرمي من وراء جمرتنا» اي يدافع عنّا؛ ابن هشام: السيرة ٦٢

٣) الاغاني ١٣: ١٢٢

٤) ابن دريد: تفسير الرسول ٣: ٣٠٦-٣٠٨؛ النسائي: السُنن ١: ٢٨٩-٢٩١؛ البخاري: الصحيح ٧: ١٠٣؛ مسلم: الصحيح ١: ٢١٦، ٢: ٤٨١

٥) الاغاني ١٦: ١٠١؛ ديوان لبيد (طبعة الخالدي) ٧٦

الوحيدين في الحجاز من مناطق رجم الحجارة. ومن الثابت ان منطقة ذي الحُليفة كانت تشاركها في ذلك. وذو الحُليفة اول محطة من محطات الحجّ للذاهب من المدينة. اما كونها مركزاً لمعبد قديم فثابت بوجود شجرة مقدّسة وعَلَم او نَصَب[1]. وحتى عهد السهودي ظلّ «بعض الجهلة» من الحجاج يرمون بها الحجارة وغير ذلك. وهي عادة قام عليها ارباب السنة فنسبوها الى الجهل والاخذ بالخرافات. قال السهودي: «لا يُرمى بها حجَر ولا غيره، كما يفعل بعض الجَهَلة.»[2] تقوى قبل الهجرة، جهلٌ بعدها!

ذكر الرائد هوبير[3] في واحة خيبر ركاماً من الحجارة يدعوها الناس «رجوم اليهود»، لانهم يعتبرونها قبوراً لليهود قديمة. وكلما مرّ رجل من هناك «وضع حجراً فوق الكومة». وقد اشار السهودي الى انهم لا يكتفون بوضع الحجارة وحدها. واذاً فان فكرة الرجم ليست في اصل هذه العادة. وفي موضع آخر كتب هوبير في يوميّات رحلته[4]: «تمرّ الطريق الى جنب كومة من الحطب. واذا بدُحارب (وهو اسم دليله) يتقدّم فيزيد عليها بضعة اغصان... ويقول لي الدليل ان هذه الكومة تتعلّق بقصة غرام ترقى الى الف سنة. وقد أقيم هذا الاثر من الحطب تذكيراً بالحادث، فغدا منذئذٍ معلماً يفيد في قطع النفود.»[5] ولا سبيل الى تضمين فكرة الإهانة والاحتقار في هذا

---

١) مسلم: الصحيح ١: ٤٤٦، ٤٦٨، وراجع كتابنا *Sanctuaires préislamites*, p. 56

٢) السهودي: وفاء ٢: ٦٦٤

٣) Ch. Huber, *Voyage dans l'Arabie centrale*. (extr. *Bulletin Soc. Géogr. de Paris*, 1884-1885) p. 124

٤) *op. cit.*, p. 35

٥) هو «رمل عالج» المذكور في النصوص القديمة ويقول هوبير (ص ٣١) ان البدو يسمّونه «رمل عالي». وقد يكون هذا التحريف ناتجاً من خطأ في تدوين اللفظ المسموع. ومن الشواهد على ان النفود هي رمل عالج قول حسان في ديوانه ١٦: ٧: «اذا هبطت حوران من رمل عالج» والمعروف ان المسافر يصل من نجد الى حوران بعد ان يمرّ بالنفود. ويأتي الهمداني بشاهد جديد اذ يقول في صفة جزيرة العرب ١٧٨، ٢٠٥، ٢٠٦ ان رمل عالج من منازل بني كلب. قابل بما في ابن هشام: السيرة ٥٤٨، ٦٦٧

العمل . انما هي تظهر منفية بكل صراحة . وذلك ان البدوي المارّ ، اذا اضاف غصنه الى الحطب ، او زاد حجره فوق حجارة الكومة ، لا يرمي الى اهانة صاحب الاثر ، بل يرى نفسه مشاركاً في احياء تلك الذكرى التي يخلّدها الاثر . فهو ان فاتته الزهرات في البادية ، فلا اقل من ان يضع ما يقع تحت يده من حطب او حجر . وهكذا تزداد الكومة فتعلو شيئاً فشيئاً[1] .

اما في الحجّ الاسلامي فكان لقائد الحجّ ، او اميره ، ان يبدأ هذه الرتبة الطقسية في منى . وكان الحجاج الحاضرون يشاركونه بالفكر ، فيضع كل منهم حجره[2] . وفي ضواحي مكة تكثر المعابد والمناسك او مشاعر الحرام ، والأنصاب ، والجبال المقدسة ، والهضبات المباركة ، والرجوم او كوم الحجارة ، حتى نُسب الى النبي القول ان كل ما هناك « موقف ومنحر »[3] . فكان الحاج ، في ذاك الطواف الممتد على بضعة ايام ، يشترك في الذكريات القديمة : من قبر جدّ الى حجر مكرّم ، الى موقف مبارك ، تتتابع المحطات فتجعل شيئاً من التنوّع في ذاك الطواف الممل . .

هكذا قضى البدويّ القرون العديدة في الجاهليّة يكرّم هذه الآثار . وكلّما مرّ ، في اسفاره المتعدّدة ، امام القبر المكرّم ، اوقف راحلته متأثّراً ، محترماً[4] ، لدى تلك الصفائح المركومة دون ترتيب ، او لدى تلك الأنصاب الملطخة بدماء الذبائح[5] ، مذكرةً الحفدة باسم الجدّ الكريم . يوقف راحلته فيضع حجره ويستمطر على القبر « الغوادي الرائحات » او « الوابل المتحلّب » ، ويحيي صاحبه تحيّة صخر لاخيه معاوية :

---

١) الاغاني ١٤ : ١٢١ ، ٦ : ٦٤

٢) ابن هشام : السيرة ٧٦-٧٧

٣) وقد توسّعنا في درس هذا القول . وما كان من اختلاط بين بقايا العبادة الجاهلية القديمة ومناسك الحج الجديد في كتابنا *Sanctuaires préislamites*

٤) كما فعل عارب ، دليل هوبير ، في صحراء النفود . وكما فعل ادلاّئي في شرق الاردن اذ كانوا يتوقفون قليلاً في الطريق فيرمون بحجارتهم على الكوم المتعالية فوق قبور بعض القتلى ، كما قالوا .

٥) وهو معنى القول : « وانصاب لدى الجمرات تُنحر » ابن هشام : السيرة ٥٢٤

اذا ما ابرز اهدى ليت تحيّةً ، فحيّاك ربُّ الناس عني ، معاويا[١]

ولهذا قال صاحب « المحاسن » عن عادات ذاك العهد : « كان الميت منهم اذا مات تجعل فوته الحجارة لم تكن القبور . »[٢] وكان هـذا العمل يقوم به الاهل والخلّان . واذاً فليس من فكرة رجم او اهانة في رمي هذه الحجارة . ولا يجوز ان نفهم بهذا العمل ما تضمّنتـه كلمة الرجم في عصرنا من دلالة احتقارية . ولم يكن البدوي ليضرب القبر بالحجارة ، ضربَ الراجم ، بل كان يضع حجره[٣] فيزيد به الكومة الحافظة جسد الميت . هو عمل محبة ومؤاساة للميت[٤] . بل رتبة طقسية يأتيها البدوي مشاركاً ابناء القبيلة في تكريم جدّهم ، مجدّداً العهد بينهم وبين الشيخ الراحل ، آخذاً نصيبه في هذا المظهر الديني للعاطفة البنوية .

وكثيراً ما كانت الذبيحة تتمّ هذه الرتبـة[٥] فتزيد فكرة التكريم الديني . كان البدو يضحون بالابل خاصّة . وذلك بان يعقروا البعير ، اي يقطعوا رجليه ، ويتركوه على القبر يتخبّط ويتألم حتى يموت[٦] . ويصعب جدّاً ان ننفي فكرة تكريم الميت في هذه الذبيحة التي قال صاحب « المحاسن » انها تُقام في حفل من الناس « تعظيماً له »[٧] . وكان المسافر ، اذا مرّ بالقبر المكرّم ، ولم يمكنه عقر راحلته ، اعتذر بانه لم يأتِ براحلة ثانية يعود عليها الى قومه[٨] . وكثيراً ما ندم على هذا السهو . والويل للنفس التي لم تُكرّم بهـذا المظهر

١) الاغاني ١٣ : ١٤٥ ؛ ١٤٦ ؛ ١٦ : ١٢٢ ؛ وقابل بما في ابن هشام : السيرة ٥٢١

٢) المحاسن المنسوب للجاحظ ، ص ٢٧١

٣) قابل بما في A. Musil, *Arabia Petraea*, III, 36 ؛ الاغاني ١٦ : ١٤٤

٤) وهو الشرح الوحيد الذي يرفه ادلاني رزقاني من البدو .

٥) الاغاني ١٦ : ١٠٢

٦) الاغاني ١ : ١٢٨ ، ١٦٨ ؛ ١١ : ١٤٤ ؛ ١٦ : ٧ ، ١٠٢ ؛ ١٦ : ٤٩ ؛ العقد ١ : ٢٦ ؛ Perron, *Femmes Arabes*, 80 ؛ ١١٦

٧) المحاسن ، ١٧ – ويذكر ابن عساكر في تاريخه (طبعة بدران) ٥ : ٨٠ جواداً يُعقر على قبر .

٨) الاغاني ١٦ : ١٠٢

الاخير من البرّ والتقوى. ولا ينفعها في شيء، اذ ذاك، ما يصيح به اقرباؤها عند الدفن من صراخ تقليدي متردّد: «لا تبعد!». فان هذا الدعاء يضيع في مجاهل القفر دون ان يحدث اي صدى. أوَ لا تشعر بعاطفة الوَحدة المؤلمة في ذاك القبر الذي نُدي في القفر فلم تُقفر عليه راحلة، هي العاطفة الصارخة في قول عامر بن الطفيل عن قبر والده المنفرد وحيداً في بادية هرجاب:

الا ان خيرَ الناس رِسْلاً ونجدةً هِبرْجابَ، لم تحبس عليه الركائبُ(١

وها ان الامراء الغسانيين، حتى بعد اهتدائهم الى النصرانية، لا يمكنهم الإقلاع عن هذا الواجب التقليدي. فكانوا، في المواسم الحافلة، يخرجون الى قبر جدهم جفنة، فيتهافت نحوهم بدو نجد والحجاز يشهدون

اولاد جفنة حولَ قبر ابيهم، قبر ابن مارية الكريم، المفضل(٢

ينحرون المئات من الابل في سبيل تكريمه وتعظيمه. فيتقاسم البدو اشلاءها. ويأتي الشعراء كالنابغة وحسّان، فيصوّرونهم، لدى قبور اجدادهم، في جِلَق وصيدا،(٣ ...، محافظين على التقاليد الجاهلية المأثورة فيعجب بهم العرب ويجعلونهم في عداد «واهبي المئين»(٤.

واذا تُبِّض للبدوي ان يقوم بكل ما تفرضه عليه هذه الرتبة الدينية، طابت نفسه، فركب ناقته راجماً رجوعَ المطمئن القائم بواجبه. حتى اذا نفرت الناقة لما تراه على القبر من آثار الضحية الحديثة(٥، هذا اضطرابها بصوته وكفه وقال:

---

١) ديوان عامر بن الطفيل ٣٢: ٣. انظر في معنى «الرِسْل والنجدة» – وهي من التعابير المردّدة حتى الابتذال – كتاب الجاحظ في «البخلاء» ص ٢٥٤–٢٥٥: «النقر هو النجدة والابن هو الرِسْل». واذن فيكون معنى النجدة إطعام الإبل. اما التعبير «لم تُحبس» فيفيد عقر الراحلة على قبر الميت حتى تموت هناك. وقد شاء التقليد الإسلامي ان يضع لهذه العادة معنى آخر فقال: ان هذه الراحلة توقف على قبر الميت حتى يركبها صاحبه في العالم الآخر، ابن الاثير: النهاية ١: ٩٥، ٣: ١١٣–١١٤

٢) البيت لحسّان في ديوانه ١٣: ٨؛ الاغاني ٩: ١٦٢، ٢: ١٤

٣) شعراء النصرانية ٦٤٥

٤) راجع *Beccari*, 1, 134-135، الجاحظ: المحاسن ٨٠، ١٠٧

٥) اطلب ابن هشام: السيرة ٥٢

لا تنفري ، يا ناق ، منه ؛ فإنه سبأ[1] خمر ، مسر لمزوب .[1]

* * *

في سبيل وقف هذا المجرى ، ووضع حدّ لهذه التكريمات الجاهلية الخطيرة ، لم يتراجع ارباب السُنّة عن التحريف في معنى التقاليد العربية القديمة فصرفها عن هدفها الاصلي . ولهذا رأيناهم يجزمون ، دون برهان ، بعدم التمييز بين ابي رغال ، جدّ الثقفيين ، وذاك الخائن الذي اقام من نفسه دليلاً لجيش الحبش .[2] فامكنتهم هذه الاسطورة الخيالية من تحويل وضع الحجارة على القبور « تعظيماً » لاصحابها الى « رجم » يقوم به العرب استقاراً[3] لقبر ذاك المجرم تجاه أمّته[4] .

وكان من شأن هـذه الخطة الجريئة ان تصيب ايضاً عبادة الحجارة المؤلهة عامةً ، ولاسيّما تكريم العرب لقبور ابطالهم وسادتهم في العهد الجاهلي[5] .

---

١) الاغاني ١٩ : ١٢١ . ولا يخفى ان ذكر الخمر من شأنه ان يدلّ على كرم البيت وغناه . اما في معنى « مسر » فاطلب ابن دريد : الكتاب المذكور ، ١٢٢ .

٢) راجع الجاحظ : الحيوان ٦ : ٤٧ ، وفيه ان هذا القبر كان قريباً من مكة . يؤيّد ذلك بكثير من الشواهد الشعرية ، منها قول لسكين يظهر منه ان عادة رمي الحجارة لم تكن حديثة . حتى ان معناها الاصلي بدأ يكتنفه الغموض منذ منتصف القرن الاول للهجرة .

٣) كذلك ترام يرجمون قبر مسلم بن قُتيبة Wâqid. 262-263 ، كما يقول السمهودي : الوفا . ١ : ٩٥ : « يُرمى كما يُرمى قبر ابي رغـال . » راجع ايضاً المحبّ : خلاصة الأثر ٣ : ٣٦٣ ؛ المسعودي : مروج الذهب ٣ : ١٦١

٤) الاغاني ٦ : ٧٦ . قابل برواية ابي داود : السُنن ٢ : ٢١ ، وهي أخصر ، واقدم . استنتج منها صاحب الاغاني أسوأ الدوافع ، وقد اسند الخبر لا الى عبدالله بن عمرو بن العاص الذي اختاره اصحاب السُنن سنداً لرواياتهم لما كان له من املاك واسعة في الطائف (راجع Ṭâif, p. 127) بل الى ابن عبّاس ، ذاك الذي كثيراً ما لجأ الى اسمه واضعو الاحاديث في العهد العباسي ، ولا يخفى ان ابن عبّاس قضى آخر حياته في الطائف .

٥) يذكر ابن جبير : الرحلة ١١١ ، في احدى ضواحي مكة كومتين من الحجارة يرجمها الناس ويعدونها قبر ابي لهب وامرأته .